

حمد صالح (*) انك تكتب قصة جيدة

الكبير الراحل ، حلقة اتصال ، كنت تظن انك صرت منهم ، لكنك لم تزل قرويا ، لم تزل جلفا لا تجيد اللعبة . احببته لانه صديق شقيقك الراحل . كنت تجد اخالك في كلماته ، في انفاسه ، في رائحة فيميصه ، وتسلسل الى ثلبك رويدا . قرأت له قصتك الاولى ، قال لك : ركيكة ولغتها جافة والفكرة شائهة . غضبت قليلا ، لكنه استنرد : على اية حال هي محاولتك الاولى . لكن حين قال لك ذو السن الذهبية القول ذاته ، تفجرت براكين الغضب في داخلك ، انه يردد عن قصد كلمات صديقك الرزين ، انه يفيظك ، يقول لك بتشيف .

« - انك تلميذ متخلف لصديقك القاصي . »

انه يستهزيء بك ، انت تقرا الان جارودي وماركس وسارتر . زوجتك تشير زوبعة كل شهر . المرتب يضع نصفه على الكتب والخمر ، زوجتك الامية ، حين فتحت لك الكتب مفاليق العالم الفسيح ، استشعرت فداحة الجرم الذي ارتكبته بزواجك منها . امية من قرية بعيدة في الشرفاط (١) . وطفلك عار تلمسه الشمس ، وياكل التراب قدميه . اردته حلقة اتصال . كنت تحلم ، حلمت ان عالمهم وردي يحفل بالحب والعباء . حين التفتيت باولهم توسمت خيرا ، هذا الابيض المليح ، كلامه حلو ، وثيابه انيقة ، وصاحباته كثيرات ، حين اعلنت رغبتك في لقائكما الثاني في ان تكون لك صاحبة مثلهن ، تبسم ، انت تدرك الان سر ابتسامته . يا حمد صالح ايها العريف المدرع المسرح ، الرجل الطيب ابوك كان ضنيينا عليك حتى بالاسم ، دفعك الى الدنيا ووسمك بوسم مبتور ، لو كنت احمد ، لو كنت محمدا ، لكنك حمد ، اسمك يثير فرقهن ، ضحكهن ، سخريتهن ، وصديقتك الوسيم يقربهن بطلاوة حديثه ، بربطات عنقه الزاهية ، بقصصه المعبرة عن عالمهن ، الحب ، الجنس ، والمغامرات اللذيذة . حمد صالح لم تجد واحدة ترضى بك ولن ، بملابسك الكئيبة المهلهلة ، ووجهك الشرس ، ولهجتك القروية التي تثير ضحكاتهن . الوسيم غمرك بفيض من الكتب ، والرزين يحبك ، لكنك تلمح في نقدهما لقصصك عبارات مشبوهة ، الا انك تحبهما ، وهذا الشاعر ذو السن الذهبية ، انه يثيرك ، يثيرك ، هل تنزل الزجاجة على راسه ؟! - هل تفرس شظاياها في عنقه ؟ هل تفعل ؟ . يدك مفلولة ، وخنجرك الحاد المعقوف تركته خامدا تحت المخدة ، بعد اول جلسة تركته ، كان هذا شرط صديقك الرزين ، في الايام الخوالي قبل ان ترمي نفسك كذبابة حمقاء في نسيج عنكبوت شرس ، كنت تمنطق خنجرك ، تتشامخ به ، تعربد ، تصيح بوجه رفاقك في العمل ويدك على مقبضه الفضي فيكشون ، يتصافرون ، هؤلاء يسخرون ، اسلحتهم الاقلام والالسنه ، ويسخرون .

« - حمد صالح ، انك تلميذ فاشل لصديقك . »

هل تنهي حالة الاحارب ، وتفشق دماغه بالزجاجة ؟ ام تنتسف شعرات لحينك الكثة الشعشاء ، التي اطلقتها لتزبل عن ملامحك خشونتها . تصيح زوجتك « التفت الى نفسك يا رجل ، عد الى بيتك ، انك ترمي المرتب كله في البالوعة » . صفعه ، صفعتان ، ثلاث صفعات ، المرأة في القرية لا يجب ان تسوس زوجها ، المرأة خادمة شرعية ، توفر الجنس ، الطعام ، تنجب الاولاد ، انجبت لك ولدا ، هلل والدك « ساجله سر جده ، ساعلمه حب الارض . » . صرخت

(١) الشرفاط .. مدينة صغيرة جدا في محافظة نينوى . يحاذيها نهر دجلة ، وتقع بين بغداد والموصل .

« - حمد صالح انت فاشل .. »

« - يا حمد .. انك لا تتقن فن الفص .. »

تنطاحن الاصوات كلها ضدك ، شحذ السنننها وتهوي بها عليك تجريحا وفذفا . حمد صالح انت خارج اللعبة ، انك لا تجيدها ، كثيرون غيرك حاولوا لكنهم فشلوا . انه (ربع) الزحلاوي الذي بدأته والم شتاتك وارتحل ، لا مكان لك هنا ، انهم انيقون يجيدون رسم الكلمات ، انت قروي ، عد الى فريتك البعيدة واقتت الفبار وبسملسة والسك الطيب ، ان جوفك يحترق ، يستعر الخمر فيه ، تنتشبث بروحك ، اوارها يهربد ، ونجتاحك احاسيس متضاربة .

تنكر انك لو كنت تحمل خنجرك ، اذن لاغمدته في الصدر العريض الشاخص امامك . صاحبه يتسم . يلقي عليك نظرة ذئبية ، ويتسم .. « - انك لا تجيد الكتابة .. »

قالوا له انك شاعر عظيم ، فظنها الحفيفة ، ومضى يتعاطم عليك ، في حقيقته طيب ، لكنه حين يتنقد قصصك يصير شريرا .

« - لغتك صلبة ، وتبيرانك مكرورة .. »

ترد عليه منكرا ، محموقا .

« - انا .. انا قرأت همنجواي وكامو ونجيب محفوظ .. كيف .!؟ »

كيف لغتي صلبة .. ؟ » .

انه يتبسم ، يتبسم ، وتبرق في عينيك السن الذهبية ، سنه الذهبية ، فتندلع نيران العالم في داخلك ، وتهم بقذفه بزجاجة الخمر ، لكنها ما زالت تحتوي السائل الابيض السحري الذي ينسبك هذا الجو المنذر المعيق بالفض ، وتكرع قرح العرق ، وتقضم شريحة من الخيار المالح ، لكنك تبصقها .

« - انت شاعر فاشل مفروز ، انك لا تعرف شيئا عن القصة ،

كيف تبيح لنفسك نقد قصتي ؟! » . يتبسم ايضا ، يضحك ، يقول بتناقل ساخر :

« - هات قلما وورقا واكتب الان قصة تنفوق على كل ما كتبت . » .

يتبسم الآخرون ، تضج وجوههم بضحكات معادية ، تحلم ، انت القروي البسيط ، تحلم انك عثرت على فردوسك المفقود ، انك صرت في بقعة امينة ، كنت تانها ، صحراء مترامية لا يحدها شيء بتلمك ، تصدم تظلماتك كئيبان رملية هائلة ، وتزوم الزوابع ، تهيم على وجهك ، نصفك حبات الرمل ، تجرح وجهك ، الرمل قاس وصلب وحاد كما قلوبهم ، الاضواء خافتة ، ليست شاعرية ، صفراء كامدة تزرع القلق والهيم ، تلتهم انسانيك ، لكن السن الذهبية اللعينة تبرق ، هل تهشم الزجاجة على الراس الكبير الذي يحمله وتنتهي منه ؟ لكن الزجاجة ما زالت . انت في العاصفة صانع . الجوع يشنق روحك ، والمطش ، تكاد تنضي ظما ، انهار العالم كلها لا ترويك ، افرغ الكاس الأخرى في جوفك ، لا تنزع العرق بالماء ، لا تمزجه ، دعه نقيا ، كلهم مزيفون ، فلنكن كاسك نقية ، لنكن كاسك نقية . تحلم . الصحراء تبنتك ، تلفظك ، تبناك ، منهكة وعاتية ، رمالها رمادية ، سوداء ، سوداء مثل نفوسهم ، لم تكن تعرفهم . العريف المدرع المسرح حمد صالح ، لم تكن تعرفهم . كنت تأمل الخلاص ، الفاص الرزين صديق شقيقك

(٢) حمد صالح .. واحد من قصاصي الموصل الشباب . شارك في معارك تشرين المجيدة . اتخذه هنا رمزا للانسان العربي المحبط الذي سفحت كرامته نكسة حزيران .

مفتاظا ، جعلت والدك الشيخ يجفل ، صحت « دعه لي ، لن ادعك نعبت به كما فعلت بي » .. اسميته نبيلاً ، استشعرت انك انما تغير اسمك ، اكناب والدك ، كان يريد صالحاً ، لكن المدن افسدتك ، هكذا يرر الامر ، وانحنى يلثم المولود بلا ود ، السن الذهبية ترنو اليك بلا ود ، وولدك صار سر جده ، يكره المدينة ، يتشمم روائحها المرفقة بتوق يندفق . يجري في ازقتها المتربة ، يقطس في النهر ، يركب العمير ، يذب على الاشواك وجذور السنابل اليابسة ، يقدمين عاريتين سميكتي الجلد ، لا يابه بخشونة الارض ولا بالاشواك الماضية الرؤوس ، انت تخاف الاشواك ، تجفلك ، ها .. ضحكاتهم نعول ماضية تدب في رأسك ، وتطرد منه ابخرة الخمر . الحضرية الوحيدة التي استطعت استمالتها اليك ، كانت فيبيحة ، وكذب نرضى ، لكنها كانت تخص صاحبك بجمل حديثها حتى مقتها . زوجتك عادت الى القرية ، وظلت تصطلي نار الشهوة . انت قروي شيق ، والسيدان عارية بيضاء كما الحليب تجوب المدينة ، والمعجزات هائلة تلاميذ ، والصدور ناهدة ، نائرة ، تندفع في الشوارع الكبيرة ، تطلق النيران على البؤساء ، تحفظ عيونهم . ايها العريف المدرع حمد صالح ، لا تطلق النار . دع اسراب الفانتوم والميراج تحلق فوقك . لكن لا تطلق النار . جيش الدفاع الاسرائيلي من امامك ، والملك الصغير من ورائك ، وما لك والله ، الا الصمت والصبر . القم مدفعك حجارة كبيرة ، اخرسه ، دع اسراب الفانتوم والميراج تستعرض ارض العرب المتهكبة . الفتنة العارمة وافلام الجنس البتذلة والصور المتنوعة تنتهك تجلدك ، الشهوة تحرقك . حتى في الاردن لم تعدم امرأة تصب فيها لهيب شهوتك . صاحبت المرأة بك « ايها الجندي العراقي خذني ، خذني بقوة ، حطم اضلعي .. » . وتركتها مشبوحة حتى الصباح . المدينة هنا خالية . مليئة وباردة . مليئة وباردة وخالية . صدقك الوسيم يرتع على فهم النهود الصلبة كالجزء ، وانت تحتضن الوسادة ، وابخرة الخمر تشحن الحجارة الكريهة . تجعلك تقذف امعاءك في الصباح . السن الذهبية تبرق وسط زرين الكؤوس المترعة بالخمر . هي التحدي بعينه . انه يرمي ففازه في وجهك . هل تقذفه بزجاجتك ..؟ هل .؟ لم هجرت قريتك ؟ لم ايت هنا ؟ كان يتوجب عليك العودة اليها بعد ان ادبت فريضة الدم . لم تركت الارض ينبع فيها البوم ؟ هل استطاع رجل واحد ان يهجره منها ..؟ لم همدت عزيمتك ، وسلمت زمامك للشيخ ولاغراء المدن الباردة ، وتكبت الهزيمة . الميراج والفانتوم والتردد والشيخ والنهود المشرعة ، تالجوا عليك ، هزموك يا حمد صالح ، كان عليك ان تطلق النار ، ان تقتل المسؤول او جيش الدفاع الامر سيان ، لكنك آثرت النكوص . هل تدع نفسك لذي السن الذهبية ، يعبت بك كيفما يشاء ؟ الوسيم يلثم الشفاة الكرزية الفليضة ، ويضم اجسادا نائرة كالرماح . الرزين يتلقى اوسمة الاطراء والثناء ، وتكال له قصائد المديح . وانت تلتحف الهزيمة وتمب ترابها . ايه حمد صالح هل بات اولاد العرب هكذا بلا شيمة . اي متهامة اصاعت خيول المعتصم ، واي قوة راعية تشامخت فصدت عليا عن خيبر . هل تدع السن الذهبية تنفض ليلتك ؟ الرزين حلقة الاتصال ، جرك برغبتيك اليهم فصرت بؤرة حلقته المفرغة . هل تصمت .. ها .. هل تدعهم يمرغون كرامة الانسان في التراب ..؟ . (بلاغ رقم .. قامت القوات العربية بعبور القناة ، واجتازت خط بارليف الحصين ببراعة ..) .. يا لثارات المدافع الصامتة المكومة الاقواء ، على خطوط النار . انك تشوف النصر يقبل اخضر .. هل تحطم الزجاجة على راسه ..؟ . هل ..؟ .

((ان قصصك مفتعلة زائفة ، انها ركيكة ..)) .

الخمرة الرديئة ، وابخرتها السامة . رؤوسهم تماواج ، تترنج ، تتلاحم وتعود تنفصل ، الصبي يتمرغ حالما في فراش فدر تحت سماء طينية تثق قشا وترابا . أنت تستاف عهر السننهم . صلافتك لا تطولهم . هم يضعونك في دوامتهم . يفرقونك ، يقطعونك شرائح بالسنتهم ، ياكلونك جيا . سماؤك الطينية احدى من سماء زرقاء عاتية

تقذفك بالسجيل . ابن كرامة الانسان فيك ..؟ ابن !! . (بلاغ رقم .. اسقطت المقاتلات العربية ٢٢ طائرة من نوعي ميراج وفانتوم ...) .. هل عادت المدافع تدوي ..!! هل يترت الايدي التي كتمتها وعادت تعربد !! هل آن للوجوه ان تنفسل بالبارود لتذيب شحوم الهزيمة . انها الواقعة حمد صالح .. انها الواقعة .. اولاد العرب ينبعون من عروق الصخر ، يقبلون من كل صوب . ان لجيش الدفاع الاسرائيلي ان يذود عن (غنائم) غزوانه الدموية المتوالية . تبخرت الخمر يا حمد صالح ، وتجلي الفضب النفي الحقيقي ، انزع حذاءك الاسود ، البالي ، المرفوع ، انزع ، اضرب به على المائدة ، ضربات متضافرة ، قاسية . اجعل زجاجات الخدر والهزيمة تتحطم ، اصرخ في وجوههم السمينة ، الملبدة ، الشاخصة في فضاء الحديقة الاخضر الداكن . قل حمد .. قل .. بلاغ .. بلاغ .. بلاغ .. يمتد امتداد كرامة الانسان ، يحمل كل الارقام المعروفة والمجهولة والمنوعة .. انا حمد صالح اتحدك .. اتحدكم .. انتم شلة الانس والهذر والكلام الفارغ .. نقدكم غير المسؤول يفضيضي ، يزعجني ، يزعيني ، لكنه لن يتيني ، لن يبدد عزيمتي .. بلاغ .. بلاغ ..

حمد صالح ايها الجندي القديم المنكس السلاح . ها راسك يشمخ من جديد . وحتى فهم الاشجار العالية ، الداكنة ، انفرجت عن فسحة الفضاء التي كانت تحاصرها وبانت السماء زرقاء ، رائقة . وها هي المدافع تكلم . لفظت لفة الهس ، وعادت تلعلع بملء فوهاتها ، ضجيجها يعشرهم ، يمزق صفوفهم ، ينهي اسطورتهم ، وانت حمد صالح ، بادراك ووعي ، لا تهزك النهود المشرعة ، النيران المتدلعة على الحدود المصدوعة تمتص مشارك ، بشدك حرارتها ، تمدوك اليها ، حمد صالح تكب عزيمتك ، اهزم الميراج والفانتوم والشيخ والنهود المشرعة ... (بيان .. بيان ..) اصغ حمد .. اصغ .. (بيان) الجنود انسرحين الالبيين .. من كل الموايد يلتحقون فوراً .. بيان) اصغ حمد .. (بيان ..) .

استرح ، سكير الامس حمد صالح ، استعد .. قاص امس الاول ، تكب سلاح .. ايها العريف المدرع انقاد الى الخدمة استعد . استرح . تكب سلاح . الى الامام سر ..

انك انت هنا في الجولان ، الروشكا الرابض على صدر دبابتك ، يتشمم رائحة الاعداء . ارض الهضبة الوعرة الثابتة بالصخور البيضاء الحادة ، المزروعة بخضرة شاحبة ، تطويها دبابتك بيسر ، هذه ارضك ، تحتملك وتحملها ، تتروي من دمك فتبهك الحياة . الارض الوعرة الخضبة تشبه ارض الشرفاط ، رغم صخورها . والوجوه البيضاء ، الجادة ، العفودة الحواجب التي تحتضنك عيونها الملونة ، تناظر الوجوه السمراء ، المحملة بالثعب ، في الشرفاط ، التي ودعتك بعيون سوداء مائجة بدموع الفرح ، انها الارض الواحدة حمد صالح ، انه الدم الواحد ، انها كرامة الانسان . ان قائدك يدمعك الى التقدم . ايها العريف المدرع .. ايها القاص السابق .. تقدم نحو جبل الشيخ .. انههر بذراعيك السمراوين على زناد مدفعك . بين عينيك والشعرة والهدف دهور من النار . انك تقترب من طوابيرهم . هذا طابور امامك . اسلحتهم امريكية جديدة تبرق . اعصف بهم حمد صالح . اعصف بهم . دع الرصاص السوفيتي يبلج في صدورهم ، يبدك العربية .. ايه حمد صالح .. انك تكذب قصة جديدة . رصاصة في كتفك . جرحك ينفث دما . لا .. لا تصرخ . انه الالم اللذيد . انه العصف الجميل . السن الذهبية ترمقك باعجاب . الوجوه الشاخصة تتحرك . دمك يروي الشرفاط . يروي الجولان . الوجوه تحييك . تصفق لك . لا تتأوه . اضفط اسنانك على شفتك في قوة . انك تكذب قصة جيدة . حمد صالح .. انك بدمك تكذب قصة خالدة .

العراق (الموصول)